



موقع فضيلة الشيخ
د. محمد إسماعيل المقدم



شرح كتاب

الدَّاءُ وَالذَّوَاءُ

لفضيلة الشيخ الدكتور

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ الْمُقَدَّمِ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، مَا لِكَ يَا يَوْمَ الدِّينِ وَالْعَاقِبَةِ لِلْمُتَّقِينَ وَلَا عُذْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ
وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ
حَمِيدٌ مَجِيدٌ، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابَ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرُّ الْأُمُورِ
مُحَدَّثَاتِهَا وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٍ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ، شَرُّنَا فِي
الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي فِي مُدَارَسَةِ كِتَابِ الْجَوَابِ الْكَافِي لِمَنْ سَأَلَ عَنِ الدَّوَاءِ الشَّافِي أَوْ
"الدَّاءِ وَالدَّوَاءِ" لِلْإِمَامِ الْحَافِظِ الْمُحَقِّقِ بْنِ الْجَوْزِيِّ -رحمه الله- وَقَدْ أَلْفَهُ كَمَا
ذَكَرْنَا جَوَابًا عَنْ هَذَا السُّؤَالِ الْجَامِعِ: (مَاذَا يَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ- أَيْمَّةُ الدِّينِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ فِي رَجُلٍ أَبْتَلِيَ بِبَلِيَّةٍ ، وَعَلِمَ أَنَّهَا إِنْ اسْتَمَرَّتْ بِهِ أَفْسَدَتْ عَلَيْهِ
دُنْيَاهُ وَآخِرَتُهُ ، وَقَدْ اجْتَهَدَ فِي دَفْعِهَا عَنْ نَفْسِهِ بِكُلِّ طَرِيقٍ فَمَا يَزْدَادُ إِلَّا تَوَقُّدًا
وَشِدَّةً، فَمَا الْحِيلَةُ فِي دَفْعِهَا؟ وَمَا الطَّرِيقُ إِلَى كَشْفِهَا؟ فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَعَانَ مُبْتَلَى،
وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ ، أَفْتَوْنَا مَأْجُورِينَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ).

وذكرنا كيف بدأ الإمام -رحمه الله تعالى- بيان أن الله تعالى ما أنزل داءً إلا أنزل له
دواءً؛ علمه من علمه وجهله من جهله إلا الموت، وأن هذا الداء يعُمُ أمراض الروح
والقلب وأمراض البدن، وبين أيضًا أن النبي ﷺ جعل الجهل داءً ممرضًا وشفأؤه العلم ،

وبين أيضًا رحمه الله أن القرآن أعظم الأدوية وأعظم شفاء لمن انتفع به {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ
مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [النساء: 82] وذكر

حديث سعيد الخدري في ركن الفاتحة وكيف كان دواء ذلك الرجل بالرقية
بalfاتحة، ثم ذكر أن الأدعية وأن الرُقَى والتعوذات التي يستشفى أو يسترقى بها ،
هي في نفسها نافعة شافية، ولكن لابد من قبول المحل ، ولابد من قوة همة
الفاعل وتأثيره ، فإذا ما تخلف الشفاء فهذا ليس قدحًا في الدواء نفسه ، وإنما
يكون هناك مانع منع حصول هذا الشفاء ، أو أن المحل غير قابل .

ثم خصَّ أكثر فبين كيف أن الدعاء من أعظم أسباب دفع المكروه وحصول المطلوب وقد يتخلف أثرالدعاء، إما لأن الدعاء نفسه دعاءً فيه آفة كأن يكون دعاءً بمحرمٍ أو فيه شيء من العدوان لايحبه الله سبحانه وتعالى، وإما أن يكون الدعاء طيبً لكن القلب ضعيف لا يُقبل على الله، أو مشغول بالغفلة، أو استولت عليه الغفلة، أو حصول مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام، وغيره من الذنوب على القلوب كما بينا من قبل.

ثم خص أكثر فبين كيف أن الدعاء من أعظم أسباب دفع المكروه وحصول المطلوب ، وقد يتخلف أثر الدعاء إما لأن الدعاء نفسه دعاءً فيه آفة ، أو دعاءً بمحرم ، أو دعاءً فيه عدوان لا يحبه الله تبارك وتعالى ، وإما دعاءً طيب ولكن القلب الضعيف لا يقبل على الله سبحانه وتعالى ، ويشغل بالغفلة ، أو استولت عليه الغفلة ، أو حصول مانع من إجابة الدعاء كأكل الحرام وريين الذنوب على القلوب .

ثم ذكر حالات الدعاء مع البلاء :

١- الحالة الأولى: أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه، أو أن يكون الدعاء أضعف

من البلاء فيغلبه البلاء لكن الدعاء يؤثر في إضعافه عن أصله، أو يتقاوما ويمنع كل منهما صاحبه وذكرنا الأدلة على ذلك.

ثم ذكر بعد ذلك أن من أنفع الأدوية الإلحاح في الدعاء وأن من موانع إجابة الدعاء الاستعجال، العبد يتعجل الإجابة يقول قد دعوت ودعوت فلم أرى يُستجاب لي، فيستحسر بعد ذلك ويدع الدعاء.

ثم ذكر بعض الروايات في اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دُعي به الله أجاب، وذكرنا بعض الروايات في ذلك.

ثم ذكر ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- شبهة يتذرع بها بعض الجهال ، وهو قولهم : إن المدعو إذا كان قد قُدِّرَ فما قُدِّرَ فلا بد من وقوعه ، وإن كان قد قدره الله فلا بد أن يقع سواء دعى العبد أو لم يدعوا، وإن كان لم يقدر فأيضاً لم يقع سواء سأل العبد أم لم يسأله.

وذكرنا أن هذا السؤال في حد ذاته هو سؤال خطأ، فأجاب الإمام ابن القيم على ذلك من وجوه:

أولاً: قال: إن طرد هذا الكلام يعطل جميع الأسباب، لا يقال ذلك فقط في الدعاء يقال في الشبع والري وكل ما ربط بالأسباب من أفعال .

فإذن أيضًا إذا عطشت لا تذهب وتشرب الماء، إذا جوعت لا تطلب الطعام... نفس المنطق الشبع مكتوب لك بدون حصول أسباب، فإن الأخذ في أسباب دفع الظم والجوع بالطعام والشراب، إن كان مكتوب سيقع سواء أخذت بالأسباب أم لم تأخذ، وإن لم يكن مكتوبًا فلا ينفع .. وهكذا طرد نفس هذا المنطق، فينكشف زيف هذا الكلام فإن الله سبحانه يقدر هذه الأشياء ولكن يقدرها بأسبابها، ويجعل لهذه الأسباب تأثيراً وسبباً في حصول هذه الأشياء.

أيضاً رد الإمام ابن القيم -رحمه الله- على بعض المتكاسين الذين قالوا : إن الاشتغال بالدعاء من باب التعبد المحض، يُثاب عليه الداعي بدون أن يكون للدعاء نفسه سبب وتأثير في حصل المطلوب، وبالتالي لا فرق عند هذا المتكاس من أن يدعو الإنسان أو أن يسكت ويمسك لسانه وقلبه عن التوجه إلى الله -تبارك وتعالى- كلاهما سواء، لكن الدعاء أمر تعبدى فقط بلا أى تأثير.

طائفة أخرى أكيس من هؤلاء، قالوا: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله -سبحانه وتعالى- أمانة على قضاء حاجة الداعي، وليس هناك من علاقة بين الدعاء وبين الإجابة إلا مجرد الاقتران العادي، وليس التأثير السببي، وهذا كلام بلا شك يضحك العقلاء.

ثم أجاب الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى- بقوله: "إن هناك قسمًا ثالثًا هو الصواب" غير ما سأله هذا السائل .

السائل يقول : المدعو به إذا كان قُدّر لم يكن -بُد من وقوعه ، دعا به العبد أم لم يدعوا، وإن لم يكن قد قُدّر لم يقع سواء سأله العبد أم لم يسأله.

قال: الصواب أن هاهنا قسمًا ثالثًا غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدور قُدّر بأسباب ومن أسبابه الدعاء، فيُجاب على هذا السؤال؟ أن الصحيح أن تعلم أن الأمور التي قدرها الله لها أسبابها، يعني مثلاً: قدر لهذا الشخص أن يكون عنده مثلاً خمسة أولاد، ولكن لا بد لكى يقع الإنجاب لهذا الرجل لا بد مثلاً أن يتزوج ويقع الإنجاب، مع أن الله قادر على كل شيء، لكن جرت العادة والسنن الكونية كي يكون عنده أولاد لا بد أن يتزوج، كي تذهب المرض لا بد أن تأخذ بأسباب التداوى ... وهكذا ، كل شيء في هذا الوجود رُبط بالأسباب.

يقول ابن القيم: والصواب أنها هاهنا قسمًا ثالثًا غير ما ذكره السائل، وهو أن هذا المقدور قدر بأسباب ومن أسبابه الدعاء، لم يُقدّر مجردًا عن سببه، ولكن قُدر سببه، فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور، ومن لم يأت بالسبب انتفى المقدور، وهذا كما قدر الشبع والري بالاكل والشرب، وقدر الولد بالوطء، وقدر حصول الزرع بالبذر، وقدر خروج نفس الحيوان بذبحه، وكذلك قدر دخول الجنة بالأعمال، ودخول النار بالأعمال، وهذا القسم هو الحق، وهو الذي حُرّمه السائل ولم يوفق له.

حينئذٍ لابد أن نوقن أنّ الدعاء له تأثير حقيقي في دفع المكروه وجلب المطلوب، فالدعاء من أقوى الأسباب. فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال! بل ليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب.

ولذلك كان الصحابة -رضي الله عنهم- أفقه الأمة بهذه الحقيقة، فكان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يستنصر به على أعدائه بالدعاء وبذكر الله، وكان عنده أعظم الجيوش، كان يعدّ الدعاء سلاحًا أقوى من أسلحة الجيوش، وكان يقول لأصحابه: "لستم تنصرون بكثرة، وإنما تُنصرون من السماء".

وأنتم تعلمون الحديث الصحيح الذي ذكره عمر "أبغوني في الضعفاء، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم" الضعفاء من الأطفال والكبار والنساء، فإنما يأتي الرزق بسبب دعاء هؤلاء وإخلاصهم.

ويقول عمر: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه.

إذا وفق العبد للدعاء، فهذه تكون أمانة على أن الله عزوجل يريد به خيرًا، إذا فُتح عليك في الدعاء ووفقك الله أن ترفع يدك إليه بقلبك وتدعوا مخلصًا، فأعلم أنها علامة على أن الله يريد بك الخير، فإن الله لم يكن يُقيمك في هذا المقام إلا وهو يريد أن يُحسن إليك، أنت إذا سألت رجلاً كريماً حاجة فإنك تمدحه بأنه لا يرد سائلاً، فكيف بكرم الله تبارك وتعالى! كما جاء في الحديث "إن الله حيي يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين"، لابد أنك إذا رفعت يديك إلى الله سائلاً ومتسولاً أن يضع فيهما خيرًا ولا يردك خائبًا.

يقول الشاعر: لو لم تُردْ نيل ما أرجو وأطلبه

من جودِ كَفَّكَ ما عودتني الطلبا .

فالله لم يعلمنا الدعاء إلا لكي يعطينا، فإذا هذه بشارة خير كل من فُتِح عليه في الدعاء سواء في سجوده، أو في خلوته أو في جلوته، فليستبشر خيراً، فالله لم يكن ليقيمك في هذا المقام إلا لكي يُحسن إليك.

ترى كثير من البشر يعرفون أن الدعاء له تأثير ويأتي من وراءه خير كثير، ومع ذلك يُحال بينه وبين الدعاء ، مع أن الجميع يعلمون أن الدعاء مثمر.

ولكن الذى يُوفق ويخلق الله في قلبه إرادة هذه العبادة العظيمة هو الموفق، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: " أعجز الناس من عجز عن الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام "

إذا كان الدعاء بكلمات بسيطة مع إخلاص في القلب يحصل إجابته الدعاء، وتحصيل أعظم المطالب في الدين والدنيا ، لا يكلف شيئاً ومع ذلك يعجز الإنسان عنه، وهذا ما في شك أقبح صور العجز والتراخي.

ويقول الله تبارك { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [غافر:60] وقال : {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} [البقرة:100]
ولذلك جاء في الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ " من لم يسأل الله يغضب عليه "

ويقول بعض الشعراء:

لا تسألن بني آدم حاجة... وسل الذى بابه لا يُحجت

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب .

ثم ذكر الإمام ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- كيف أن الله سبحانه وتعالى رتب حصول الخيرات في الدنيا والآخرة ، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة، على الأعمال ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلو على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع {يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل:32] وقوله {وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَاهُمْ مَّاءً غَدَقًا} [الجن:16] وغير ذلك من الأمثال التي ذكرناها .

ثم قال: وبالجمله ، فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، فكل شيء وُجد في هذا الوجود خُلِق

بسبب، بل ترتب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال .

يقول: ومن تفقه هذه المسألة، وتأملها حق التأمل ، انتفع بها غاية النفع ، ولم يتكل على القدر جهلاً منه وعجزاً وتفريطاً وإضاعة، فيكون توكله عجزاً، وعجزه توكلًا.

بل الفقيه كل الفقيه الذي يردّ القدر بالقدر، ويدفع القدر بالقدر، ويعارض القدر بالقدر، بل لا يمكن الإنسان يعيش إلا بذلك، فإنّ الجوع والعطش والبرد وأنواع المخاوف والمحاذير هي من القدر، والخلق كلهم ساعون في دفع هذا القدر بالقدر.. وهكذا من وفقه الله ، وألهمه رُشدَه، يدفع قدر العقوبة الأخروية بقدر التوبة والإيمان والأعمال الصالحة؛ فهذا وزان القدر المخوف في الدنيا وما يضاده سواء .

فرب الدارين واحد، وحكمته واحدة، لا يناقض بعضها بعضاً، ولا يبطل بعضها بعضاً، فهذه المسألة من أشرف المسائل لمن عرف قدرها، ورعاها حق رعايتها والله المستعان.

ثم يقول، بعد أن أرسى قاعدة كل شيء بسبب: لكن يبقى عليه أمران بهما تتم سعادته وفلاحه:

أحدهما: أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير.

والأمر الثاني: أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب.

هذا كلام غاية في الأهمية يقول بعدما نفرغ من هذه القاعدة وأن كل شيء في الدنيا قانون واحد رُبط بسببه ، وربط بالأعمال كذلك يبقى على الإنسان أمرين، بعد أن ربط كل شيء بسببه فعليه أن يتعلم تفاصيل أسباب الخير و الشر، حتى يُحصل أسباب الخير ويدفع أسباب الشر.

ثم بعد ذلك أن يحذر مغالطة نفسه على هذه الأسباب وهذا باب مهم جداً.

يقول : أحدها أن يعرف تفاصيل أسباب الشر والخير ، ويكون له بصيرة في ذلك بما يشاهده في العالم ، وما جرّبه في نفسه وغيره ، وما سمعه من أخبار الأمم قديماً وحديثاً ، ومن أنفع ما في ذلك تدبر القرآن .

إذا تدبرت القرآن يطلعك على أسباب الخير وأسباب الشر ، فإنه كفيل بذلك على أكمل الوجوه ، وفيه أسباب الشر والخير جميعاً مفصلة مبينة ، ثم السنة ، فإنها

شقيقة القرآن وهي الوحي الثاني ، ومن صرف إليهما عنايته اكتفى بهما عن غيرهما ، وهما يُريَانك الخير والشر وأسبابهما ، حتى كأنك تعاین ذلك عيانا .

وبعد ذلك إذا تأملت أخبار الأمم وأيام الله في أهل طاعته وأهل معصيته طابق ذلك ما علمته من القرآن والسنة ، ورأيت تفاصيل ما أخبر الله به ووعد به .

قوانين وسنن ، أسباب النجاة وأسباب الهلاك في كل الأمم ربما ستتغير فقط الأسماء .

تأمل مثلاً مصرع فرعون ، ومصرع النمرود ، ومصرع الطواغيت إلى يومنا هذا ، هي سنة واحدة لا تتغير ولا تتبدل في كل طاغية لابد أن يقول الناس : الحمد لله الذي أراحنا منه هذا جزاء وفاق للظلم الذي كان يقوم به .

مستمرة لا تتغير ربما الأسماء هي التي تتغير أن الظلم ، مرتعه وخيمه ، وأن عاقبته من أسوأ العواقب والعياذ بالله .

يقول : ورأيت تفاصيل ما أخبر الله به الكثير ووعد به ، وعلمت من آياته في الآفاق ما يدل على أن القرآن حق ، وأن الرسول حق ، وأن الله ينجز وعده لا محالة . فالتاريخ تفصيل لجزئيات ما عرفنا الله ورسوله به الأسباب الكلية للخير والشر .

فهذا هو الأمر الأول الذي يتم به فلاح العبد وسعادته في الدنيا والآخرة ، أن يعرف تفاصيل أسباب الخير والشر .

وهذه لا يختصر تعلمها فقط على القرآن والسنة وعلوم الوحيين ، بل أيضًا من خلال نظره في سنن الله ، وقوانين الله ، وفي تاريخ الأمم الماضية ، وفي أيام الله .

إذا استقر هذا في نفسك ، وعرفت تفاصيل أسباب الخير والشر ، يبقى عليك أمر ثاني وهو في غاية الأهمية : هو أن تحذر مغالطة نفسك على هذه الأسباب ولا بد .

فيعني ما في خلاف بين الناس ، أن المعصية والغفلة عن الله من أسباب الشر التي تضره في دنياه وآخرته .

يقول : ولكن تغالطه نفسه ، هو يعرف أن الشر شر والمعصية معصية ومضره في الدين والدنيا ولكن تغالطه نفسه ببعض المغالطات ، تخدعه ، كالإتكال على عفو الله ومغفرته تارة ، يركز دائمًا على ماذا إن الله غفور رحيم ، يُعمل نظره في نصوص الرجاء ،

من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وغير ذلك من النصوص في تحسين الظن في الله تبارك وتعالى ، وأطماع العباد في رحمة الله عزوجل .

أحياناً تغالطه نفسه حتى لا يخرج من وهدة المعاصي ومن وحل الغفلة ، بالتسوية بالتوبة ، سوف أتوب ، سوف أصلي ، سوف أفعل كذا ، فهذه من أعظم أسلحة الشيطان في القضاء على رأس مال الإنسان ، وهو عمره ووقته النفيس ، فيظل يسوف ، كما جاء في بعض الآثار: **(أَكْثَرُ صَيَاحِ أَهْلِ النَّارِ مَنْ سَوَّفَ ، يَقُولُونَ وَاحِرْنَآهَ مَنْ سَوَّفَ)** لأنها هي التي ضيعت هؤلاء

أَنَّ الْعَمَلَ الْمُؤَجَّلَ ضَائِعٌ قاعدة أوصيكم أن تحفظوها هي :

أى شئ تؤجله عن وقته أعلم أن الأصل فيه سيضيع إلا ما استثنى ، ربما توجد بعض الاستثناءات .

من علامة الفشل في التوبة أو أى شئ تريد أن تحدث فيه تغيير في حياتك أنك تؤجله تقول من غداً ، إذا قال شخص يريد أن يتوب من التدخين ، من أول الأسبوع القادم سوف أتوب عن التدخين ، كلا إذا كان صادقاً من الآن يبدأ ، ولا يُسَوَّفُ فمتى ما أجَّل العمل فلا بد أن يضيع .